مفتون ـ الغرب المحير ـ (الألمان)

الشعار الأول: حيث تغيب الآلهة تسود الأشباح وتسيطر.

(مقولة لنوڤاليس أحد أدباء الرومانسية)

الشعار الثاني: إن الاعتقاد بضرورة تبني الشعوب غير الغربية لقيم ولمؤسسات ولحضارة غربية، لهو أمر غير أخلاقي في نتائجه. (بالنظر إلى نتائجه وتوابعه)

(صامويل هنتنجتون: «الغرب الفريد» ص ٤١)

ـ ١ ـ

إذا أراد المرء أن يتنبأ بالتطورات المستقبلية للغرب وللشرق (الإسلامي) ـ أو أراد على أقل تقدير وصف المقومات التي يتطلبها التطور المرجو ـ فعليه في بادئ الأمر أن يقوم بعملية حصر للعوامل المتعلقة بهذا الموضوع. عليه أن يبدأ بالسؤال التالي: ماذا يحدث على الجانبين الآن ؟

أعتقد أن أنسب الناس وأقدرهم على الإجابة عن هذا السؤال هم من يتمتعون بتفكير نقدي سليم، وأتيحت لهم الفرصة بأن يعيشوا في الجانبين دون أن يتنكروا لجذورهم الأصلية. أعتقد أن حكم هؤلاء على الوضع الراهن، ورأيهم لجديران بالإجابة عن سؤالنا عن الوضع الراهن في الجانبين.

وإنني إذ أقول ذلك، يخطر على ذهني هؤلاء الطلبة الزائرون الذين يعودون إلى بلادهم بعد استكمال دراستهم في الغرب (هؤلاء يشاهدون بلادهم بنظرة جديدة) وهم بطبيعة الحال غير اللاجئين إلى الغرب سواء لأسباب سياسية أو اقتصادية؛ إذ إن هؤلاء ـ نظراً لوضعهم ـ لا يملكون إلا إبداء الإعجاب الشديد بالبلد المضيف أو الاعتماد الكلي عليه، وبالتالي أراهم غير قادرين على ممارسة النقد النزيه أو التفكير بشكل نقدي سليم.

ولتحقيق ذلك، سأقوم بخلق شخصيتين من بنات أفكاري لطالبين مسلمين نمطيين يعيشان في الغرب حالياً، وسأقوم بتوجيه الأسئلة إليهما عن هذا الغرب، حتى أصفه من خلال عيونهما. أما في الفصل التالي، فسأقوم بهذه التجربة مع طالبين أوروبيين ـ هما بطبيعة الحال شخصيتان ابتكرتهما أنا في خيالي ـ اعتنقا الإسلام فأسألهما عن انطباعاتهما عن العالم الإسلامي. وسأضيف إلى الشخصيتين المتخَيَّلتَين بعداً إضافياً من خيالي، فإحدى الشخصيتين اختارت هذا العالم وطنًا لها، أما الأخرى فلا ترى داعياً لهجرة وطنها الأصلي.

ومن خلال هذه التجربة سنشاهد هذا العالم ـ العالم الإسلامي ـ من خلال عيون غريب عنه.

أما النتيجة فأعتقد أنها ستكون محيرة.

ـ ٢ ـ

ينتمي الطالب الأول الذي نستمع إليه إلى ما يمكن أن نسميه بالإسلام الميلادي، فهو مسلم بالميلاد والجذور والبيئة، أكثر منه مسلماً بالممارسة، أي الإسلام. هذا الطالب طالما حلم بالغرب قبل أن تطأه قدماه. منذ طفولته كان الغرب بتقدمه مثالاً له (كان منذ طفولته يضع تقدميته كمثال يجب الوصول إليه حتى في فسادها الماركسي).

فلا غرابة إذاً في أن يحاول تشرُّب هذه الحضارة الغربية التي طالما عشقها، حتى إنك لا تميزه عن محيطه الغربي الذي يعيش فيه.

إنني لأتحدث عن تجربة وخبرة، حيث إنني انتقلت عام ١٩٥٠ وعمري آنذاك ١٩ عاماً من ألمانيا المقسمة، المهزومة، المحتلة،والمنكسرة إلى: Union College في نيويورك، في قلب جنة ما الحرب العالمية الثانية بأمريكا في قمة ازدهارها، حيث تسيل أنهار من الكوكاكولا و(ميلك شاكس ـ Milkshakes).

لقد كان تأثير أمريكا منذ زمن ـ والآن الغرب بأكمله ـ على المهاجرين من الشباب أشبه بتأثير المخدرات التي تصور لهم مستوى معيشة أفضل. فالكل يتخيل إمكانية تحقيق أي شيء وكل شيء هنا. هنا في هذا العالم حيث يجد الأصحاء والمثابرون الفرص العظيمة بمنتهى السهولة، حتى يخيل لهم أنها ملقاة في الشارع ليلتقطوها.

أما أسباب هذا التصور فواضحة، فالغرب متقدم تكنولوجياً بدرجة

عالية جداً. الغرب يعيش بعد اختراعات القرن العشرين ثورته التكنولوجية الثالثة، حيث تنهال الاختراعات التي تقلب صناعة المعلومات رأساً على عقب.

فالعالم لم يعد هو العالم نفسه منذ اختراع الإنترنت.

أعتقد أن وصف الطالب المسلم ـ المسلم ميلادياً ـ بحكم المولد والبيئة، للغرب يكن له تقديراً كبيراً سيكون كالتالي:

كل ما يتعلق بالتكنولوجيا ـ بما في ذلك الطب والبيروقراطية ـ يسير على أكمل وجه، حتى إن الإنسان أصبح هو عامل الإزعاج الوحيد والأخير. هذه الكفاءة نجدها تسود كذلك مجالات مثل الاقتصاد والإدارة والتربية. يلتزم غالبية المواطنين بالقوانين ويطبق الدستور بشكل روتيني في الدولة. فدولة الدستور حقيقة وواقع مطمئن. والحديث عن الرشا قليل جداً، والقوات المسلحة تدين بالولاء التام للحكومة المدنية المنتخَبة، ولا يتعرض أتباع الأديان والمعتقدات المختلفة للسجن أو التعذيب. والدولة تتحمل مسؤولية مواطنيها من المهد إلى اللحد. كما تتحمل الدولة مسؤوليتها في المحافظة على البيئة. ونادراً ما ينقطع التيار الكهربائي أو المياه أو التدفئة. (عند هذه النقطة من وصف الغرب، ونادراً ما ينقطع التيار الكهربائي أو المياه أو التدفئة. (عند هذه النقطة من وصف الغرب، يرغب المرء ـ بوصفه مواطناً يعيش فيه ـ في التوقف، حيث يشعر بملل شديد من ذكر كل الأمور التافهة هذه. أما بالنسبة لمواطن من العالم الثالث، فما ذكر ليس من التفاهات بشيء، بل كلها إنجازات يحسد عليها

الغرب). فالفرد يقف في موقع المركز، سواء في الدولة أو المجتمع أو الاقتصاد بسوقه المشبع حتى التخمة. هذا الفرد يتمتع بأقصى حماية من قبل الشرطة والقضاء ضد أي ظلم يقع عليه أو تعسف يمارَس ضده. كما يقوم الأفراد باختيار حكوماتهم بحرّية تامة. العملة ثابتة وكل مايقوم بشرائه من منتجات وأدوية سليمة وغير مغشوشة، فهناك رقابة صارمة على الجودة. وهنا في الغرب لا يجد العاطل عن العمل نفسه مضطراً إلى مد يده ليتسول، حتى الاضطرابات العمالية لا تتدخل الشرطة لإنهائها!

الفكرة والقيمة السائدة هي الحرية والتحرر، التحرر من الظلم والقهر والخوف والجوع والندرة والرقابة واللوائح، والحياء. هنا تسود حرية إبداء الرأي وحرية التجمع وحرية الاعتقاد وحرية اختيار مكان الإقامة وحرية أداء الخدمة العسكرية. ومن خلال ملاحظاتنا لسوق العمل ـ وكذلك ملابسها ـ يتبين لنا أن العوائق كافة قد زالت من طريق المرأة لتحقيق ذاتها. فالتحرر الجنسي أصبح حقيقة ملموسة. لقد تحررت المرأة تماماً، والقانون والمبدأ السائدان بين الجنسين هو: ما يهواه المرء فهو مسموح به. ويتضمن هذا بطبيعة الحال الاعتراف بحياة الشواذ حياة مقبولة متساوية مع غيرها، لم يصبح الشواذ في حاجة إلى التستر أو الاختفاء، بل العكس يمكنهم اليوم إنشاء تنظيم خاص بهم.

مجمل القول: ينظر طالبنا المسلم المندمج في الغرب إلى هذا العالم نظرة شديدة الإيجابية، حيث يراه أقصى ما بلغته الحضارة الإنسانية من مراحل وأزهاها، وبالتالي يحق للغرب وحضارته أن يسود العالم.

- ٣ -

نجد في مقابل هذا الطالب في الغرب نوعية أخرى من الطلبة الأجانب، وهم الذين يمارسون شعائر الإسلام ويرفضون الغرب المذكور سابقاً ـ رغم مميزاته ـ جملة تفصيلاً ، بل إنهم يلعنونه بشكل مطلق، حتى إن المرء كثيراً ما يتساءل لمَ لا يعودون فوراً إلى أوطانهم ليتركوا «الشيطان الأكبر» المكروه منهم لحاله؟ [1] .

ونحن نريد الآن أن نتتبع مسار تفكير أحد هؤلاء الطلبة، وهو بطبيعة الحال شخصية متخيَّلة وليست حقيقة. إنه يسوق مسوِّغات منطقية وحججاً قوية ومسوَّغة لحكمه السلبي على الغرب، شأنه شأن زميله المغرم بالغرب.

يبدأ هذا الطالب أول ما يبدأ بتوجيه نقده إلى النزعة العقلانية الغربية، والتي يرجع إليها الفضل في ظهور ما يسمى بـ «مشروع الحداثة»؛ منذ القرن الثامن عشر.

فالتاريخ الحقيقي والفعلي للغرب منذ عصر التنوير لم يكن تحقيقاً للعقل بقدر ما كان سلسلة متتالية من الفظائع والأعمال غير الإنسانية،

---

(١) النمط الأكثر انتشاراً الممثل لهذا الموقف، هم أعضاء حزب التحرير الإسلامي، تلك المنظمة المعارضة التي تأسست عام ١٩٥٣ على يد الشيخ تقي الدين النبهاني، والتي لها تمثيل قوي في كل من الأردن والولايات المتحدة. وتتميز بنبذها للعنف، فهذه الجماعة تتوقع أن تجد مشكلات العالم كلها حلاً عن طريق عودة الخلافة التي ألغاها مصطفى كمال أتاتورك وتشكيل نظام إسلامي قوي. إن هذه الحركة تقوم بنشر أعمالها عن طريق «منشورات الخلافة» في بريطانية وفي الولايات المتحدة عن طريق TINA (تنظيم الإسلام لشمال أمريكا).

مثل: عمالة الأطفال، تحويل قطاعات ضخمة من المزارعين إلى عمال في قطاع الصناعة وما ترتب على ذلك من أضرار للأراضي الزراعية، تجارة العبيد والتفرقة العنصرية، اشتعال حربين عالميتين مدمرتين، استخدام أسلحة كيميائية ونووية، إرهاب تمارسه الدولة تحت شعارات أيديولوجية كالبولشفية، وكذلك نزعات كالشوفونية الفاشية، وليس آخر هذه الفظائع عمليات التطهير العرقي في وسط أوروبا كما هو الحال في كرواتيا والبوسنة وصربيا.

لا نستطيع أن ننفي عن آباء التنوير المسؤولية غير المباشرة عن هذا الفشل الفريد لفكرة عظيمة، هي سيطرة العقل على أفراد مستقلين وعلى تصرفاتهم. فمفكرون من أمثال ديفيد هيوم (١٧١١ ـ ١٧٧٦) فولتير (١٦١٤ ـ ١٧٧٨)، فريدريك الكبير (١٧١٢ ـ ١٧٨٦)، لسينج (١٧٢٩ ـ ١٧٨١)، وجوته (١٧٤٩ ـ ١٨٣٢)، ومن قبلهم مونتاني (١٥٣٣ ـ ١٥٩٢) وديكارت (١٥٩٦ ـ ١٦٥٠) ولوك (١٦٣٢ ـ ١٧٠٤) وكذلك ليبنتس (١٦٤٦ ـ ١٧١٦). هؤلاء جميعاً لم يكونوا ملحدين ناكرين لوجود إله، ولكنهم كانو مؤمنين بإله كعلة أولى، ناكرين للوحي، مؤمنين بإله واحد بعيد وليس بصورة الثالوث الإلهي الذي تتبناه الكنيسة المسيحية. اعتمد إيمانهم على ملاحظة الطبيعة وتأملها والتفكير فيها، وليس على التسليم بالوحي. لم يرغب هؤلاء في إلغاء فكرة عقيدة أو ديانة، ولكن اتجهت جهودهم إلى القضاء على سيطرة الكنيسة على معتقدات البشر وعلى نفوذ الكهنوت.

ولقد استغل بعض التنويريين الإسلام (كعملية التفاف) للإسراع بعملية التحرر من نير الكنيسة . لقد حقق ليسينج هذا بشكل مناسب من خلال مسرحيته «ناثان الحكيم» (٢) التي كتبها عام ١٧٧٩ التي أبرز فيها مثالية وإيجابية المسلم.

أما ڤولتير، فقام بمحاولة سابقة ـ غير لائقة ـ حيث قام في عام ١٧٤٢ بكتابة مسرحية «ماهومت النبي الكاذب». لقد أراد من خلال عمله نقد الكنيسة من خلال هجومه على الإسلام (٣). ولقد كافأه فريدريك الأكبر على عمله هذا بمنحه وساماً.

أما بالنسبة لأعمال كانط النقدية، فلم تكن ضد الدين بقدر ما كانت موجهة ضد الكنيسة، فلم يدلل كانط ـ ولم يرغب أصلاً في التدليل ـ على عدم وجود الله في عمله « نقد العقل » (١٧٨١)، ولكن أراد نفي إمكانية الاعتماد على تصورات ميتافيزيقية تتعدى نقد المعرفة، وبالتالي تتحول حتماً إلى لعب بالألفاظ كما سيقول ڤيتجنشتين. لقد لجأ كانط في عمله

---

(٢) Kusxhel (١٩٩٨).

(٢) لقد قام القيصر فريدريك هذا بالتفاوض عام ١٧٧٥ مع ألف «عائلة محمدية» ليستوطنوا بروسيا الغربية، ويقيم هو لهم فيها بيوتاً وينشئ لهم بها المساجد (جاء هذا في خطابه إلى ڤولتير في ١٣ أغسطس). فريدريك هذا كان يعي تماماً أن صديقه ڤولتير لا يعرف عن محمد أكثر من معرفته عن إمبراطور الصين (خطاب ١٧٧٦/١/١٠). لقد اعترف ڤولتير في خطاب منه إلى فريدريك في ديسمبر عام ١٧٤٠ أن «محمداً لم يأت بفعل الخيانة الذي يستخدمه ڤولتير موضوعاً لهذه المسرحية» (ماهومت)، ويعتذر عن جهله بالتاريخ وعبثه به بمقولة يشيب لها الولدان: «من يجرؤ على إشعال حرب في بلده وذلك باسم الله، أو ليس قادراً على فعل أي شيء؟» في الخطابات المتبادلة بين ڤولتير وفريدريك. - Voltaire Friedrich der Grocsse - Briefwechsel Haffmans Verlag Zurich 19992.

التالي عام ١٧٨٨ «نقد العقل العملي» إلى أن المسلَّمة (الفرضية المسلَّمة) «الله» ضرورة لمسيرة المجتمع. ولكن بالرغم من ذلك أدى التحرر من سيطرة الكنيسة على البشر كنتيجة عملية التنوير إلى تهميش دور الدين. لقد احتل الإنسان الفرد مكانة الله بحُسبان أنه هو الإنسان الفرد مقياس ومعيار كل شيء، لقد تمادى الإنسان في تقدير ذاته وقدراته حتى أصبح الوثن الجديد لهذا العصر.

ولم يكن في مقدور غالبية الناس التعايش مع ما يمثله كانط من مواقف اللا أدرية إزاء المعرفة واللا معرفة، بمعنى أن يتأرجح ما يتعلق بالموقف الفلسفي والديني، أي أن يحيا وكأن الله موجود دون أن يملك دليلاً علمياً على هذا الوجود؛ ولذ كان الفرد العادي في القرن الثامن عشر يميل إلى الأخذ بفرضية باسكال (١٦٢٣ ـ ١٦٦٢): إذا ما أخذ بمبدأ الإيمان بالله، فإنه تبين أن ذلك حق، فاز حينئذ بكل شيء، وإذا تبين خلافه فإنه لن يخسر شيئاً. ولكن كان من البديهي، بل من الضروري، أن يؤدي القرن الثامن عشر إلى القرن التاسع عشر، قرن الإلحاد، وممثليه الأساسيين لودفيج فويرباخ (١٨٠٤ ـ ١٨٨٣) وسيجموند فرويد (١٨٥٦ ـ ١٩٣٩).

وفي اللحظة التي أصبح فيها الله مجرد إسقاط لرغبات البشر، أصبح المجال مهيأ لتأليه الإنسان في صوره المختلفة، سواء كان ذلك بتأليه الجماعة في الدولة (الماركسية، الاشتراكية، الفاشية) أو تأليه الفرد (الفردية، الليبرالية، الرأسمالية، النزعة النفسية).

ولذا أمكن لفردريش (١٨٤٤ ـ ١٩٠٠) أن يعلن بعد ١٠٠ عام فقط من صدور عمل كانط «العلم السعيد» ١٨٨٢ موت الله [٤]، واختفاء صورة الإله كما ودت في المسيحية. وبهذا الإعلان مهد نيتشه للقرن العشرين المثقل بالأيديولوجيات الكثيرة المختلفة وبصراعاتها.

لقد أيقن من مطلق خبراته الخاصة ما عرفه المسلمون من قبل، وهو أن اقتصار الدين على المجال الخاص للشخص، هو أولى الخطوات للقضاء عليه والتخلص منه.

منذ تلك اللحظة عاشت الإنسانية ما لم تره من قبل وما لا مثيل له: فالحضارة الغربية هي الحضارة الأولى من نوعها التي تظن أن بإمكانها الحياة دون الإيمان بكل ما هو مقدس[٥]، دون إله ودون غيبيات، وذلك عن طريق سلوكيات تتسم بالإلحاد، حتى وإن لم تؤمن نظرياً بالإلحاد.

تحول الإلحاد فى المعسكر الاشتراكي إلى البديل الديني، خاصة في كل من ألبانيا والصين الماوية.

أما في ألمانيا الديمقراطية، فلقد أثبتت إحصاءات أجريت بعد ١٠ سنوات من زوال الحكم الشيوعي عنها أن النجاح لم يحالف النظام إلا من خلال محاولته فرض العقيدة الشيوعية وتعليم الإلحاد في المناهج

---

(٤) لقد أثبت نيتشه في كتابه الأول: Wir Furchtlosen "Die Fröhliche Wissenschaft أن أحدث وأعظم الأحداث هو أن الله قد مات، أي أن الإيمان بإله المسيحية أصبح غير مقبول أو مصدق به، وقد أخذ يلقى بظلاله على أوروبا. انظر Nietzxble الجزء الأول ص ٤٨٩ .

(٥) لم يوضح أحد معنى ضياع «المقدس» كما فعل Rudolf Otto.

الدراسية. وخير دليل على ذلك طقوس الشبيبة، فطبقاتا لها كان كل من يؤمن بالله يوصم بالخروج عن المجتمع، بل يُعَدّ من المهشمين[٦].

أما اليوم، فالإحصاءات تعطي صورة عن إيمان الشعب الألماني، كما يلي: يَعُدُّ ٤٧٪ من الألمان أنفسهم لا دينيين، و٩٪ يسمون أنفسهم ملحدين. ويرتفع هذا الرقم إلى ١٨٪ في ألمانيا الشرقية. أما بالنسبة لمن يَعُدُّون أنفسهم مؤمنين فيذهب ٩٪ منهم بانتظام إلى قداس الأحد، ولا ينبغي أن نعجب إذا وجدنا ٣٢٪ من البروتستات الألمان يؤمنون بـ «قوة عليا» بينما ٣١٪ منهم يؤمنون بالإله الذي تدعو الكنيسة إلى الإيمان به.

إنهم بإيمانهم هذا إنما يتخلون ويتبعدون ـ دون وعي ـ عن صورة الإله الاستشراقي (الغيبي) عن طريق الوحي الإلهي السامي، ويتجهون بتقديسهم، أيضاً بلا وعي، إلى الصورة الفلسفية للإله الواحد الذي يتجلى في الطبيعة، وهي صورة للإله تبناها من قبل مفكرون يونانيون سبقوا ظهور الديانة المسيحية. وهذا المنطق يفسر خروج المئات من المسيحيين من الإيمان الكنسي، فلقد فقدت الكنيسة الكاثوليكية في ألمانيا عام ١٩٩٧: ١٢٤ ألفاً من أعضائها، وهذا التطور يعود إلى ما يدور في عقول الناس من تفكير أكثر مما يعود إلى ضريبة الكنائس المالية.

وإذا كانت الإحصاءات قد بينت في عام ١٩٩٦ أن ٣٩٪ فقط من الألمان ينتمون إلى الكنيسة الإنجيلية و٣٣٪ إلى الكنيسة الكاثوليكية، فإن ذلك يعني بطبيعة الحال أن ربع تعداد السكان الألمان بلا مذهب ديني.

---

(٦) لن تجد اختلافات بين استبيانات الناس في ألمانيا الغربية والشرقية إلا في مجال الدين. انظر FAZ ١٩٩٨/٤/٢٢ و١٩٩٨/١١/١٠ و١٩٩٨/١١/٢٤.

لقد ذكرت مجلة «دير شبيجل» في عددها ١٥ يونيو عام ١٩٩٢ من خلال مقالة بعنوان: «وداع الله» أن ألمانيا قد تحولت إلى بلد كافر، بها بقايا المسيحية. ولقد دفع ذلك رئيس الأساقفة الكاثوليك «ليهمان» إلى القول بأنه منذ بونيفاتيوس لم تشهد ألمانيا مسيحيين أقل منها اليوم.

وتُعَدُّ بعض الطرق السوقية والفجة لنشر نظريات علمية عاملاً أساسياً في هذا التطور، فنظرية داروين على سبيل المثال تجعل البعض يؤمن بأن كل شيء ما هو إلا نتيجة لسلسلة من التطورات تقع بمحض الصدفة، والتي يمكن إعادتها بطريقة عكسية (reverse engigerring). واستناداً إلى نظرية النسبية لأنيشتين، يعتقد البعض أنه لا يمكن الثقة بأي شيء. أما ستيفن هاوكنج (*) فيجعلهم يعتقدون أن لا أهمية لوجود الله لتفسير بدء الخليقة، حيث يُستبدَل بذلك الـ (Big Bang). أما الوصول إلى سر الحياة والروح والوعي فهو مسألة وقت لا غير، كما يراها رجل الشارع العادي. وستتكفل الكيمياء الحيوية وعلوم الكمبيوتر بحل هذه الألغاز.

ولا يختلف إنسان العصر الحديث، إنسان القرن الحادي والعشرين كثيراً عن سلفه إنسان القرن التاسع عشر؛ فهو كسلفه ـ وإن اختلفت حداثة وتطورات الثمارات العلمية ـ يرى ويتوقع أن يفسر الوعي من خلال معطيات مادية، وأن يتوصل إلى صيغة للعالم على أساس ميكروفيزيقي، بمقتضاها يمكن تفسير كل وجود العالم من خلال حجر بناء أساسي دون الحاجة للجوء إلى تفسيرات فلسفية.

(*) عالم أمريكي بريطاني الأصل كسيح له كتاب مشهور عن بداية العالم (الناشر).

وأعراض هذه الحالة تتمثل في عملية الاستبعاد لكل ما هو ديني في المجال العام، فإذا كان المستشار الألماني لم يعد مستعداً ـ وكذلك لم يعد يرغب ـ في أداء يمين منصبه أن يذكر الله، وإن كان الله لم يذكر في خطابات أعياد الميلاد الألمانية الرسمية، فإن هذا ليس يدل فقط على تحول أوروبا الغربية عن المسيحية [٧]، ولكنه يدل على ما هو أعظم أثراً من ذلك، وهو تسلل ودخول نزعة مادية فظة إلى فكر ووجدان الكثير من الناس في الغرب.

هذا الإنكار لله الذي يعيشه الغرب، هو عدم مبالاة بأمور الآخرة أكثر منه إلحاداً وتأليهاً للإنسان، وسيكون لهما على المدى الطويل آثار وخيمة العاقبة، بل سيجلبان الخراب بعينه،وإن طال الأمد.

يعرب عن هذا الرأي أوتو فون هابسبرج، إذ يقول: «إن أوربا بلا مسيحية كبيت من الورق لابد وأن يهوي» [٨].

ومن قبله توصل جلبرت سيسترون عام ١٩٠٥ في (Heretics) إلى حكم مفاده: أن الحداثة إذا ما وصل المرء بتفكيره إلى ما ستكون عليه نهايتها، فإنه سيراها تقوده إلى الجنون بعينه. ولكن هذا لن يقع بسرعة، فالمجتمع الذي أصابه الإلحاد سيستفيد لفترة من القيم المتوارثة

---

(٧) انظر Paul Schwarzenau: «عصر ما بعد المسيحية، عناصر لدين كوكبي» في Kirste ص ٤٧٨ وما يليها. وينطلق علماء لاهوت مسيحيون آخرون، مثل: John Hick وHans Küng من عدم وجود عالم مسيحي، وأن هذا العالم لن يوجد مرة أخرى.

(٨) Paneuropa, Otto von Habsburg رقم ١٩٩١/٤ ص ٦.

والسلوكيات التي تمرس الإنسان عليها، وكذلك بعض المعتقدات التي تمتزج فيها الخرافة مع معتقدات جوته. ولكن سرعان ما ينتهي هذا الرصيد؛ فسرعان ما يبدأ البشر في البحث عن اللذة ومحاولة الحصول على كل ما يمكن من ملذات الحياة في عمره المحدود، ويتزايد بالطبع إهمالهم للصالح العام وللعائلة. ويمكن للمرء أن يتعلم كيفية التمتع بالحياة في معاهدة «البحث عن السعادة». وهذه الظاهرة ـ على ما أعتقد ـ أبلغ من أي قول عن العقلية الحاكمة لزماننا هذا، حتى أصبح الإعلاء من شأن الفرق في الملذات وإعطاء الأولوية لمتع الدنيا كأنه الديانة غير الرسمية للدولة. عندما نصل إلى هذه النقطة ـ وقد وصلت إليها أجزاء كبيرة من العالم الغربي ـ تنهار الأسرة، البناء الأساسي والأول للمتجتع، وأعراض هذا الانهيار مخيفة. ففي الولايات المتحدة الأمريكية نجد أن ١٥٪ فقط من الزيجات التي تمت حديثاً يتوقع لها ـ إحصائياً ـ الاستمرار.

وحقيقة أن هناك الملايين من الأمهات اللاتي يتحملن بمفردهن تنشئة الأطفال بسبب غياب الأب، وهذا يؤدي بالقطع إلى وجود الكثير من الأطفال المضطربين. ولا يعاني هؤلاء الأطفال وحدهم من عدم رؤيتهم لآبائهم(إذا ما وجدوا أصلاً) في عطلات نهاية الأسبوع[٩]، ولكن كذلك يعاني أطفال الأسر التي يعمل بها كلا الأبوين.

فهؤلاء الآباء والأمهات إنما يحاولون تبرئة ضمائرهم من تهمة إهمال أطفالهم بإغداق المزيد من المتع المادية عليهم، كاللعب، وهذه واحدة من

(٩) يطلق الفرنسيون على هؤلاء الآباء (péres démissionaires).

صور الرشوة «لشراء» حب أطفالهم، وهم بذلك إنما يربون مبتزين صغاراً، وجيلاً جديداً من المستهلكين الشرهين (جيلاً جديداً ضحية للنزعة الاستهلاكية). ويتولى عن هؤلاء الآباء «مجموعات الأصدقاء» مسؤولية التنشئة الاجتماعية للأبناء. هذه المجموعات تضم في معظمها أحداثاً تحولوا إلى تجار مخدرات ونشئًا بنبئ عن مجرمين عتاة مستقبلاً.

لقد فقد الأطفال الأمريكيون منذ الستينيات١٢ ساعة أسبوعياً كان بإمكانهم أن يقضوها من قبل مع ذويهم. وفي الوقت نفسه، تباعد الأجداد الأمريكيون عن حَفَدتهم وفي الفترة الزمنية نفسها تضاعفت معدلات الانتحار بين المراهقين، وسجلت معدلات أعمال العنف الصادرة عن الشباب تصل إلى أربعة أضعاف. فإذا كان الرفض هو ما يقابل به الطفل أوالمراهق الأمريكي حتى بين أصدقائه وفي مدرسته، وما كان للعنف الذي يبثه التلفزيون، وألعاب الفيديو التي تروج للعنف كحل لكل المشكلات، وتحول الجنس إلى بضاعة في متناول الأطفال، وما كان هذا أن يكون له هذا التأثير المفزع إذا ما أتيحت لهؤلاء الأطفال الذين يلتصقون بشاشات التلفزيون فرصة مشاهدة ما يذاع مع ذويهم ومناقشة كل ما يرونه مع آبائهم، ولكن هؤلاء بالطبع غائبون، وهكذا يتخطى الأطفال المحرمون من العاطفة والمشاعر الأبوية - دون وعي بذلك - الحدود الفاصلة بين العالم الخيالي والعالم الحقيقي.

ويترتب على شعور الأطفال بعدم الانتماء داخل الأسرة المفككة، وشعورهم بأنهم غير مرغوب فيهم، زيادة أعداد الأطفال الذين يعانون من

الاكتئاب ! حتى أصبح ٥٥٪ من المراهقين الأمريكيين من المدخنين، وهم يلجؤون إلى التدخين للتغلب على الضغوط العصبية أسوة بالبالغين.

ويرى المراهق من خلال وسائل الإعلام قبل بلوغه سن الرشد في المتوسط ١٥ ألف جريمة قتل واغتصاب واعتداء بالضرب، وهذا ليس مستغرباً إذا ما علمنا أن هذا المراهق الحديث ما هو إلا رفيق الشاشة الصغيرة، يقضي حوالي ٣٠ ساعة أسبوعياً في متابعة التلفزيون وألعاب الكمبيوتر . عنف يولد عنف. والمدهش في أعمال العنف ـ كالتي وقعت في مدرسة ثانوية دنڤر عام ١٩٩٩ ـ أن هناك من لا يزال يتعجب من وقوع مثل هذه الأعمال.

ويؤدي الميل إلى تناول الخمور دوراً أساسياً في مثل هذه الأعمال، هذ ا الميل الراسخ في أعماق الحضارة الغربية. فلقدخبرت بنفسي وأنا طالب في Union College بـ Schenectady عام ١٩٥٠ أنهم لا يتناولون الخمر للاسترخاء والتمتع بصحبة جيدة مثلاً، بل إنهم يشربون حتى الثمالة ليفقدوا وعيهم. وهذا الميل يبدأ في أمريكا منذ سن مبكرة، سن الدراسة الثانوية.

كان وأد البنات حديثي الولادة في بلاد العرب قبل الإسلام لظروف اقتصادية صعبة، وذلك قبل أن ينهى القرآن[١٠] عن هذا الفعل المشين. أما اليوم، فيتم تحديد نوع الجنين من خلال كشف مبكر بالموجات فوق

---

(١٠) كما جاء في الآية [١٥١] من سورة الأنعام: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾. والآية [٣١] من سورة الإسراء: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾.

الصوتية، وبناء على ذلك يتم انتقاء نوع الجنين والتخلص من غير المرغوب فيه، ويتم من خلال هذه العملية التخلص من ملايين الأطفال قبل أن يولدوا. ففي مدينة برلين وحدها، لا يرى إلا ثاني طفل نور الحياة. ولكن هذا لا يتم بسبب ظروف اقتصادية، فغالبية النساء الشابات يعتقدن أنهن وحدهن يملكن الحق في التصرف في «أرحامهن» حتى وإن ارتبط هذا بقتل طفل لم يولد بعد.

وبناءً على قرار خاص بالموت السريع، يتم تفتيت أجنة في مراحل متأخرة من النمو، ويتم القضاء على أطفال قادرين على الحياة.

وسابقاً، كان القضاء على أناس غير قادرين على الحياة بشكل طبيعي، يُعَدُّ من قبيل الأعمال النازية.

ويُعَدُّ التحول في موقف الرأي العام من الشذوذ الجنسي أحد الأعراض المميزة للتوحش والعبث الجنسي[١١] الذي أحدثته «الثورة الجنسية». كان الطب النفسي حتى فترة طويلة عقب الحرب العالمية الثانية، يَعُدُّ الشذوذ الجنسي أحد أشكال الفساد الجنسي وإحدى صور انحطاطه الواضحة. أما في عام ١٩٧٢، فقد حدث تغير ما حين صنف المعجم الأمريكي لتوصيف الأمراض النفسية الشذوذ الجنسي مرضاً نفسياً. ولكن سرعان ما ظهر الشذوذ الجنسي أسلوباً للحياة، وانتفت به صفة المرض النفسي في الطبعة اللاحقة للمعجم. فالشذوذ الجنسي طبقاً لذلك ما هو إلا توجه معين في الحياة، وممارسة لاحتمال قائم، أي أنه ظاه لبيعية لا يجب إخضاعها للعلاج النفسي.

---

(١١) Sexual Wilderness: Vance Packard ـ التوحش الجنسي.

وبناءً على هذه المعطيات كان من الضروري إخفاء أدلة عملية قوية على حقيقة ارتباط نشأة فيروس فقدان المناعة (الإيدز) بالشذوذ الجنسي بين الرجال وما يرتبط به من عوامل اكتئاب.كما تمت محاولات لإخفاء حقيقة ارتباط هذا الفيروس بعوامل أخرى ذات تأثير سلبي على جهاز المناعة كالخمر والمخدرات[١٢] .

كان يجب توجيه النظر بعيداً عن الأسباب المؤدية لظهور مرض الإيدز، والكامنة، بل والمستوطنة، في المجتمع الأمريكي، ولزاماً كان يجب إخفاء نشأة مرض الإيدز في مجتمع سان فرانسيسكو، وإلقاء المسؤولية بعيداً، ولن تجد أبعد من أحراش إفريقيا والقرود الخضر لتحمل هذه المسؤولية عنهم.

ولقد أدى هذا إلى أن يتعرض الزواج كمؤسسة إلى خطر داهم، إن إقبال الشواذ جنسياً من الجنسين، رجالاً ونساءً، على عقد زيجات بين أفراد الجنس الواحد، لهو أمر غريب وموضع للتساؤل.

تتعدد صور النهم الشديد لإشباع الملذات الجنسية كافة، فتظهر في الصور الإباحية بجميع أشكالها وجميع وسائل نشرها، وكذلك النزعات السادية والماسوشستية، وصور تبادل الأزواج والزوجات، والتحرش الجنسي، بل والاستغلال الجنسي للأطفال. وتدل هذه الصور كافة على أن الغرب يحتفل بآخر انتصاراته لنزع عوامل الكبت البشري!

---

(١٢) انظر مالك بدري (١٩٩٧) وجاود جميل.

الحقيقة التي لا يمكن إنكارها، هي أن المجتمع الغربي أصبح في بنائه مجتمعاً مدمناً أيّا كانت الصورة التي يظهر عليها هذا الإدمان: خمر، نيكوتين، ماريجوانا، كوكايين، هيروين، تليفزيون، ألعاب الكمبيوتر أو الإنترنت، وهو وضع يَمُدُّه المسلمون انحرافاً عن الطريق الموصلة إلى الله.

من المعتاد أن تتعرف بما لا يقبل الشك على مدمنين يرتادون معك وسائل المواصلات في نيويورك وواشنطن وسان فرانسيسكو.

ثم إن تناول المخدرات والتعود عليها يؤدي دائماً إلى المزيد من الإدمان، كذلك الحال في الممارسة الجنسية، حيث يدفع التعود إلى مزيد من درجات التحرر لا يستطيع المرء معه أن يتخيل إلى أين سيمضي به هذا الانحلال بشكله الواسع هذا! وليس من العجب أن يغتال كل هذا الفساد كرامة المرأة، وإحدى الصور الواضحة لذلك هي مسابقات الجمال.

يشعر الإنسان في الغرب بمزيد من الوحدة والفراغ رغم التقدم الهائل في مجال وسائل الاتصالات وما نجم عنها من تضخم في المعلومات، حتى إن البعض يسميه «تخمة معلومات».

إن كتاب شارلز رايش الذي حقق أعلى المبيعات عام ١٩٧٠ وكان بعنوان «اخضرار أمريكا ـ The greening of America » قد مثّل وعداً لـ «المهزومين» بازدهار فكري وروحي لأمريكا بعد حرب فيتنام[١٣]. أما ما

(١٣) كان كتاب Rich أكثر من تحليل. لقد كان بمثابة إعلان، ما ينفستو، أصاب به عصب جيله وإحساسهم ورؤيتهم للحياة.

عرفته أمريكا وخبرته فهو على النقيض: برودة شديدة جمدت الملاقات الإنسانية، ونزعة عنف لم يسبق لها مثيل.

ومن المظاهر التي تبعث على القلق، هذه الوحدة التي تُفرض على كبار السن، هؤلاء العجزة الذين يتم ترحيلهم إلى دور رعاية المسنين. وأسباب هذه الظاهرة لا تكمن فقط في الحقيقة التالية: هناك أعداد غفيرة من الشباب ذوي الطموح إلى درجة الهوس بأعمالهم (يطلق عليهم Yuppies)[١٤]، والمتطلعين فقط إلى تسلق سلم النجاح المهني (يطلق عليهم: متسلقو الأهرام ـ Pyramid climbers[١٥]). وهؤلاء يتنقلون من مكان إلى آخر وفق انتقالهم من وظيفة إلى وظيفة[١٦]، ويؤدي هذا إلى تفكك الروابط الأسرية.

ويمكن إرجاع أسباب الوحشة كذلك إلى تقلص عدد الأسرة الحديثة إلى ٣ أفراد بحد أقصى، وليس ذلك فحسب، بل هناك فراغ هائل يفرض على الإنسان الغربي، حتى إنه يصير عضواً في «جماعة وحيدة»[١٧]. هذا العضو يجد نفسه وحيداً أمام عجلة قيادته برغم الزحام الذي يحيط به، وكذلك يجد نفسه وحيداً أمام جهاز الكمبيوتر الخاص به.

---

(١٤) Yuppies (young, upward mobile professionals) أي رجال أعمال من الشباب شديدي الطموح والإصرار على تسلق السلم الاجتماعي.

(١٥) لقد صاغ Vaixe Packard مصطلح Pyramid climbers أي متسلقي الهرم في كتابه الذي يحمل العنوان ذاته ١٩٦٢ .

(١٦) لن نجد مجالاً يظهر فيه إصرار العاملين على النجاح والتحرك والتنقل مثل مجال البنوك الاستثمارية.

(١٧) لقد صاغ David Riesmann هذا المصطلح في الخمسينيات من خلال كتابه (The Lonely Crowd) أي «الجمع الوحيد».

وكان من الممكن أن تؤدي الكنيسة دوراً فعالاً في هذه الفوضى الأخلاقية، إلا أن هناك جموعاً من المؤمنين تفر فراراً من الكنيسة كلما حاولت هذه إظهار عملية تحديث لها [١٨]. فالكنيسة تفقد الكثير من أهميتها حينما تغير جلدها وتتحول إلى مؤسسة اجتماعية تنافس غيرها من المؤسسات العلمانية والدنيوية. فلقد حدث في منطقة Oberbayern بألمانيا أن أعلنت راهبة تابعة للكنيسة عدم إيمانها بحياة أخرى بعد الموت. كما قام بعض أساتذة اللاهوت بتحويل يسوع إلى مصلح اجتماعي فقط، وفي ظل مثل هذه الوقائع يترك الكثير من المسيحيين المؤمنين الكنيسة، ليس إلى دين آخر، ولكن لينضموا إلى هذا البحر الهائل من المتشككين.

نستطيع إذاً أن نقول: إن الخبرة الأساسية التي عاشتها الحداثة هي الفشل، وكان لابد لمشروع الحداثة أن يفشل؛ لأنه يرتكز على خطأ في التصميم (البناء الفكري): يرتكز على الفرد الليبرالي كفاعل عاقل.

يمكننا أن نلاحظ أن المسلم الذي يتناول الأمور بعين ناقدة لم يتطرق في نقده إلى نظام الدولة والاقتصاد. وإذا ما تحدثنا إليه في ذلك يأخذ في الهمهمة بأن العهد بحرية الإنسان ليس بعيداً، كما أن الدولة تنتهج منهجاً قصير حيال المسلمين، وتصم آذانها عن مشكلاتهم. أما بالنسبة

---

(١٨) إن شمالي أمريكا أقل بعداً عن المسيحية مقارنة بأوروبا، وذلك بناءً على عضوية الناس هناك في الكنائس والاعتراف العلني في المجالات العامة بوجود الله.

لقد تنبأ أسد (١٩٣٤) بهذا التطور، فقال بما معناه: إن كثيراً من المسيحيين لم يعد يقبل أن يمنهن عقله عن طريق التعاليم التي تروجها الكنيسة مثل: التجسيد وإرث الذنب والخلاص على الصليب والثالوث، وسينصرفون أفواجاً ليس عن الكنيسة فحسب بل أيضاً عن دينهم.

للصحافة، فإنها وإن لم تكن تخضع لرقابة حكومية إلا أنها تخضع لرقابة أخرى تحكمها المحرمات السياسية وغيرها في المجتمع.

هذه ملاحظات شخصية المسلم المتخيلة، هذا المسلم الذي يؤمن عن اقتناع، ويمارس الإسلام عن يقين. هذه الملاحظات التي تؤدي إلى إصدار حكم قاطع على الغرب ورفضه، بل هو يرفض رفضاً باتاً أن يقتدي بهذه الحضارة التي تعاني أزمة وجود، ويتمنى أن يبعد عن وطنه ما يؤدي به إلى هذا المصير. فهو يرى أنه ليس من العقل في شيء أن يتبع نموذج تطور أثبت فشله، أو أن يسير خلف عملية تنوير تؤدي في آخر الأمر إلى لا عقلانية الإلحاد وتوابعه الحتمية.

ألا يؤدي هذا بنا إلى التساؤل: هل شاهد كل من المسلم المؤمن عن اقتناع ويقين، والمسلم بالميلاد، هل شاهد فعلاً كل منهما نفسه العالم ووصفه كل منهما حقاً؟

نعم! لم يقم كل منهما بهذا فحسب، بل إن كلاً منهما ـ بأحكامهما المتباينة بشدة ـ على حق. فهناك في الغرب هذه الأيام الكثير مما يدعو إلى الإعجاب والاقتداء به، وهناك أيضاً بالفعل ما يتنافى تماماً مع الطبيعة الإنسانية، بل ما يجرد الإنسان من إنسانيته، حتى إن كل هذا يمكن أن يؤدي إلى انهيار هذه الحضارة وإنجازاتها إن لم تسرع بتدارك الأمر.

وإذا كان الحق كل الحق مع الزميلين في حكمهما، فإنهما قد جانبهما الصواب في رد فعليهما. فيجب عليهما ـ وعلى كل إنسان في الغرب ـ ألا

يسير خلف كل مظاهر الأزياء (الموضات)، ولكن أن يواجهها، وأن يستفيد بإنجازات الغرب الحقيقية، وأن يقاوم أمراضه الحضارية. «الانتقاء هو السبيل». ويتحقق هذا عندما نتخيل أنفسنا مرافقين لشابين مُتَخَيَّلَين من الغرب، يقومان برحلة إلى الشرق المسلم؛ لأن هناك الكثير مما يثير الإعجاب ويحض على الاقتداء به، كما أن هناك الكثير مما ينفر، بل ويثير النقد الشديد.

❁ ❁ ❁